

## مقـــــــــــــــــدور

بقلم القمصى الكبير الاستاذ محمود تيمور  
( من كتاب « الوثبة الأولى » - تحت الطبع - )

— ١ —

ظهر الشيخ سيد على السكة الزراعية ، يمشى متمهلاً وهو يلهث ، رازحاً تحت ثقل جسمه الهائل ؛ يحرك إحدى يديه إلى الأمام مستعيناً بها فى السير كما يستعين النوتى بمجذاف قاربه ، بينما يده الأخرى تقبض على طرف ( زكبية ) ملتقاة على ظهره ، بها ما يوجد عليه المحسنون من طعام ، وكان جلبابه القذر - كسوته الوحيدة التى لا يملك سواها على جسده - يمتلىء بهواء الريف القوى فيزيده ضخامة على ضخامته ، وربما علا وهبط على جسمه فكشف للرأى سيقاناً مشققة كسيقان القيل .

وانتبه نحو القناة التى تستمد مياهها من الساقية ، وهبط عليها فى المكاف المعد لستى المواشى ، وأخذ يرتوى بشره كما يرتوى الحيوان العطشان .

وترك عم خضر الساقية - حيث كان مشغلاً بمراقبة النور - وانتبه نحو الشيخ سيد وأمسك يده وقبلها ، ثم قال له :

— ادع لى يا شيخ سيد . ادع لى لينتحها الله فى وجهى ، ويشفى أم عبد السلام زوجتى المسكينة .

فأجاب الشيخ سيد بصوت غليظ غير واضح :

— يلعن أبوك انت وهى .

فابتسم البستانى ، وأخذ يد الشيخ سيد وقبلها مرة أخرى وهو يقول له :

— ربنا يسمع منك !

ثم تركه وعاد إلى الساقية ؛ وكان الرجل قد تمدد بجوار القناة متوسداً إحدى ذراعيه ، واستعد للنوم .

— ٢ —

كان الشيخ سيد - فى طوره الأول - عميد أسرته ، وكان معروفاً برجاحة عقله وطيبه قلبه ، محترم الجانب ، محبوباً من الجميع ؛ وكان يعيش فى رخاء ، يملك هو وأخواه عشرة أفدنة ، يشتركون فى زرعها وتقسيم محصولها عليهم بالسواه ؛ وكانوا يسكنون كلهم فى دار أبيهم ؛ وهى دار ريفية رحبة وسعتهم بزوجاتهم وأولادهم ومواشيهم .

وعاش الرجل هكذا ممزراً مكرماً حتى أشرف على الخمسين ، وحدث يوماً بينا كان عائداً بحماره إلى داره ، إذ عثر الحمار في الطريق فأوقعه على الأرض ، وأصاب رأسه حجر غليظ أسال منه الدم غزيراً ، وحمل على أثر ذلك إلى منزله ، وبقي طرح الفراش عدة أسابيع بحسب شديده ، غائباً عن صوابه ؛ ولما التأم الجرح وزالت الحمى ، أصبح سيد أبو علام غيره بالأمس ، رجلاً فاقد الذاكرة معتوهاً ، ولم يعد يصلح لعمل ما من أعمال الفلاحة ، فتركه أخواه في فناء الدار يقضى وقته مع الأطفال يشاركونهم لعبهم ، ولما طال مرضه ، وعز شفاؤه ، داخل أخويه ملع الحياة ، وفكراً في التخلص منه ، ثم قر رأبهما على طرده هو وعائلته ، وحرمانهم جميعاً من ثروتهم ؛ وكان للرجل ذرية عديدة ، ولكن لم يكن بينها فرد يقوى على الدفاع عن حقوقهم المسلوبه ، وخرجت العائلة مطرودة من دارها والشيخ سيد بينهم كأنه دابة من دوابهم ، أو متاع من أمتعتهم ؛ واستقر بهم المقام في دار مهذبة صغيرة من دور العزب ، عاشوا فيها عيشة البؤس ، يكسبون مكسباً ضئيلاً لا يكاد يقوم بأودهم .

واستمر الشيخ سيد على هدوئه وخوله لا يفارق الدار ، يمضى وقته إما مع الأطفال ، أو نائماً بجوار الحائط ، لا يعرف ليله من نهاره ، وغلف جسمه وترهل ، وتهدل شعره ، واشتبهت بعضه ببعض ، وتلبك من الأوساخ ، فبشع منظره ، واحتجبت ملامحه القديمة - ملامح الرجل الذكي العامل ذي القوة والبأس - خلف ذلك القناع الوحشي ذي العينين الشاردتين المربدتين - كما يحتجب الضوء اللامع خلف الزجاج المترب التذمر .

وكانت للشيخ سيد أم ضريرة كانت تزوره في الخفاء - من غير علم أخويه - وتحمل إليه الهدايا من طعام وكساء ، فكان إذا رآها هلّل بها تهليل الأطفال - وهو يجهل من هي - ويأخذ منها الحلوى والملابس بفرح وسذاجة ، أما هي فكانت تجلسه بجسمه الغليظ على رجلها الواهية ، وتضمه إلى صدرها بحنو وشغف ، تلمعه بيدها الحلوى ، وتروى له حكايات الغول والشاطر محمد ، وإذا حل عليه النوم وسدته حجرها ، وغنت له أغاني الطقولة الجميلة .

- ٣ -

وماتت زوجة الشيخ سيد ، تاركة له أطفالاً دون سن الرشد ، فمز على أمه المعجوز أن ترى هذه العائلة بلا عائل ولا مدبر ؛ فلحقت بها ، واقتسمت معها مريض العيش ، تعمل جهداً على تفرج ضيقها .

وكرر الزمن ، وكبر الأطفال إلى شبان وفتيات ، ووجد الشبان الرزق محدوداً في تلك الجهة ، فرحلوا متفرقين إلى جهات عديدة يناضلون في ميدان الحياة الواسع ؛ أما الفتيات ، فقبعن في الدار ينتظرن الزواج ، ولكن الزواج كان يمر عليهن ساخراً لا يمد لهن يداً ، وساءت أحوال العائلة يوماً بعد يوم - على أثر رحيل الأخوة الذكور الذين كانوا يعولونها - فأخذت الأم

الضريبة تفكر في الأمر ، وفر رأيها أخيراً على الخروج بابنها المعتوه إلى الأسواق للاستجداء ، فأم ضريبة وابن أبله مسكين يحركان الشفقة ، ويستنديان الأكف للاحسان .  
وخرجت الأم في اليوم التالي تجر ابنها جراً لئلا يمشي في الخرج ، وذهبت به إلى السوق ، حيث مكثت وإياه اليوم كله يستجديان ، وطادا إلى الدار ومعهما بضعة تقود وشيء يؤكل .

وتكرر الخروج كل يوم ، واعتاد الشيخ سيد أن يتجول بمفرده في البلدة تاركاً أمه على رأس الطريق ؛ فكان يملوف على الدكاكين والقهاوى يكلم نفسه ويضحك ويشتم ويحرك يده حركات غريبة ، ثم يعود إلى أمه وفي زكيبته شيء ينتفع به .

- ٤ -

ودخل الشيخ سيد سره دكان « أبي شوشة » الجزار وبادره بقوله :  
- لقد قلت لك من زمن يا حمار إن الخير كثير . أهو واحد ... اثنين ... ثلاثة ...  
الأردب القمح في الدوار ... والماء بالراحة في الترع ... واحد ... اثنين ... ثلاثة ... ربنا يلعن جدودك ابن كلب صبيح ...

- أنا ابن كلب !.. وهل فعلت شيئاً أستحق عليه هذا ؟

- فعلت شيئاً ؟.. أبدأ ... الخير كثير يا ولد ، الخير كثير !.

فابتسم ثانياً أبو شوشة ووضع في زكيبته الرجل قطعة من اللحم ، وخرج الشيخ سيد وهو يضحك ويكرر ما قاله للجزار ، وجلس أبو شوشة في الدكان ، وقد اعتمد بذنقه على يديه ، وأخذ يفكر في ما قاله له الرجل ، لقد عد أمامه : واحد اثنين ثلاثة ، ثم كرر جلته « الخير كثير » فما معنى ذلك ؟ ألا يقصد قضية الأمليان ، إن الجلسة بمد ثلاثة أيام .  
ومضت الثلاثة أيام ، ورجع أبو شوشة القضية - التي ظلت معلقة في المحاكم سنين طويلة - وكان ابتهاجه بذلك عظيماً ، فأقام ليلة أنس كليلة الأفراح ، وزع فيها الصدقات ، وغمر الشيخ سيد بمختلف الهدايا .

وكان انتصاراً كبيراً للشيخ سيد تناقله الناس وأذاعوه ؛ فاشتهر صيته ، وقصده طلاب الحاجات من كل صوب يستوضحونه ما خفي من أمرهم ، فكانت يجذب معهم خبط عشواء ، وساعده الحظ وأفلح في هذيانه ، فهابه الجميع وأجلوه ، وأغدقوا عليه الهدايا والأموال .

- ٥ -

كان رفعت افندي ناظراً للزراعة التي يسكن عزبتها الشيخ سيد ، وكان رجلاً أحق متكبراً ، له زوجتان : الأولى امرأة ناهزت الخامسة والأربعين ، وتسكن داره التي في المزبة و

بيننا الثانية فتاة تبلغ الثامنة عشرة وتسكن داره البعيدة التي في البلدة ، وكان يميل إلى الثانية ويفضلها على الأولى فأوغر بذلك صدر الأخيرة .

ففى يوم من الأيام كان رفعت أفندى جالسا على شاطئ الترعَة أمام العزبة مستقلا بشجرة الجوز الكبيرة ، يتناول طعام الغداء بمفرده ، ويقوم بخدمته خادمه الصغير ، كان يأكل وهو مقطب الوجه يزجر الخادم لأقل هفوة ، مقبحا الأكل وصانعه ، وجاء الشيخ سيد فى ذلك الوقت يتهدى فى جلبابه المتضامس المنتفخ بالهواء ، يحذف بيده ويلث ، وجلس بالقرب من رفعت أفندى وأخذ يحرق فى طعامه وهو يتكلم كلامه غير المفهوم ، فلم يأبه به رفعت أفندى وتابع أكله وهو يسب ويشتم بلا حساب ، فزحف الشيخ سيد إليه وأخذ يحرك له يديه ويصرخ فى وجهه ، فرمقه الأفندى بنظرة شذراء ، مزججرا ، وعيل صبر الشيخ سيد فد يده واختطف لقمة من الصينية أخذ يلتمها وهو يضحك ملء شذقيه ، فاستشاط رفعت أفندى غضبا ، وقام ورفع الشيخ سيد محاولا إيقاعه فلم يترجح الأخير عن مكانه قيد أنملة ، وحسب أن الناظر يمازحه فد إليه يده ودقعه ببساطة فأقلب الرجل على ظهره فى الوحل وهو يهدر كالنور المائج ، والتف حولها جمهور غفير من سكان العزبة وضجوا بالضحك والسخرية عند ما شاهدوا الناظر يتخبط فى الطين ، وسرعان ما احتل الشيخ سيد مكان رفعت أفندى على المائدة وأخذ يأكل بشرامة وغبلة ، والنوم يهلون ويصفقون ، وقام الناظر وهو ينظف نفسه ، يلعن ويشتم ويهدد ، وقصد داره ، ورهط كبير من الأمثال يجرون خلفه يزفونه بسخرية ومجون ؛ أما الشيخ سيد فبعد أن أتى على الأكل كله تملى وتنامب وتمدد بجوار الترعَة متوسدا زكيته ونام نوما عميقا مصحوبا بنفط مزعج .

دخل رفعت أفندى منزله وهو يهدد ويزوم ، وبعد قليل قامت ضجة فى الدار مصحوبة بتكبير أناة ، ثم هدأت وخيم على المكان سكون عميق .

وبعد آذان العصر بقليل سمع من منزل الناظر صراخ وعويل وندب .

واجتمع الناس حول الدار ، وظهر الشيخ حمزة خطيب الجامع — صاحب الاحية الحمراء والوجه الجذور — على عتبة الباب وقال بصوته الجهورى :  
— يا عباد الله ، لقد هلك الظالم ، إنا لله وإنا إليه راجعون .

فهمهم الجميع بلبلون لأنهم الرحمة ، وأخذ الشيخ حمزة يشرح للناس كرامة الشيخ سيد فى هلاك الناظر الذى لم يراع مع الشيخ أصول اللياقة والكرم ، وجعل يسهب لهم فى هذا القول وهو يجد لهم الشيخ سيد يقضى على أعماله ويبرهن لهم بمختلف البراهين أنه ولي كبير من أولياء الله ، قادر على إهلاك الأشرار والبر بالصالحين الأخيار .

وكان لهذه الحادثة وقع كبير فى نفوس الحاضرين ، فأخذوا ينثرونها بين الناس فى حماسة ويقين .

- ٦ -

وكان للشيخ سيد عدة بنات تجاوزن سن الزواج . وحدث أن شاباً من عائلة معروفة في البلدة شاهد كبراهن وهي تملأ الجرة من التربة ، فأعجبته وتزوجها ، وكان له زوجتان غيرها لم تلدا له ما كان راغباً فيه من ذرية ؛ ولم يمض على زواجه من ابنة الشيخ سيد خمسة أشهر حتى عين عمدة للناحية ، ثم بعد أربعة أشهر أخرى ولدت له زوجته الجديدة صبيين توأمين ؛ وكانت مباغته له لم يكن يتوقعها ، فعد زواجه الجديد كرامة عظيمة من الشيخ سيد ، وانتشرت هذه الحادثة كسابقتها ، فأقبل وجهاء البلدة على منزل الشيخ سيد يطلبون بناته لازواج .

وعاش الرجل وأمه في دارها وحيدتين ، ولكنهما عاشا في بحبوحة من العيش . وآثرت الأم الاحتفاظ بكوخها ، ورفضت أن تنتقل بإبناها إلى دار من دور أزواج حفيداتها إذ كانت مستبكرة به ، وكانت لا تخرج منه إلا لملأ الجرة من التربة أو لتجلس على عتبة الباب تستنشق الهواء في هدوء وغبطة . أما الشيخ سيد فكان يخرج صباحاً ولا يعود إلى الدار إلا في المساء وهو يحمل بأفضل الخسنيين . كان يزور مختلف القرى ويحبب الأسواق ، يأكل حيث يريد ويستريح حيث يرغب ، محترم الجانب ، مهاباً من الجميع .  
هكذا عاش الشيخ سيد وأمه سبع سنين كاملة .

- ٧ -

وبدأ جنون الرجل يتحول من جنون هادئ لطيف إلى جنون هائج خطر . كان يدخل الأسواق كالزوبعة ، يخطف ويبعثر كل ما تصل إليه يده ، ويقصد إلى القرى فيمسك بالطيور فيخنقها ، وكثيراً ما ضرب الناس بلا سبب . وأمسك مرة بالشيخ حمزة خليلب الجامع الوقور ، وأخذ ينفث شعر لحيته الشقراء حتى كاد يفنيها عن آخرها ، ثم ركل الشيخ في بطنه ركلة قوية كادت تقضى على حياته . وبدأ الناس يتذمرون ، ولاحفلوا أن شرور الرجل تزايد وأنهم أصبحوا غير آمنين على أرواحهم وأرواح عائلاتهم . وأخذ الشيخ حمزة يهمس في الأذان ، وكانت كلمة « الشيطان » تردد على الأفواه .

وحدث يوماً أن شوهد الشيخ سيد يجرى صوب الساقية وبين يديه طفل يبلغ العامين ، يعضه بأسنانه كأنه وحش منقض على فريسته ، وصراخ الطفل يمزق الفضاء ، وكان يجرى خلف الشيخ سيد بعض رجال من الضيعة يصيحون عليه ليترك لهم الطفل . ولكن الشيخ سيد كان منهمكاً في عمله غير آبه بصياح أحد . وكان قد اقترب من الساقية ، ولمعت في ذهنه فكرة مريئة أراد أن ينفذها في الحال ؛ ولكن والد الطفل لحق به وانزع الطفل من بين يديه .

وكانت أم الطفل بالقرب من زوجها ، فأخذت ولدها في لطفة وجزع وهي تبكي وتولول ، ثم عادت به إلى المنزل لتضمد جراحه وتمتنى بشأنه . أما الزوج فبعد أن سلم الطفل إلى زوجته ، عاد إلى الشيخ سيد ثاراً ، لا يستطيع ضبط نفسه . والتحمت بين الرجلين معركة هائلة انتهت بفوز حسن سلام والد الطفل ، فترك خصمه بعد أن كاله الضرب ألواناً ؛ وقام الشيخ سيد وهو يبكي كالأمفقال ، يئن ويتوجع ويحجر نفسه في إعياء ، عائداً إلى منزله .

أما حسن سلام فبادر بالرجوع إلى داره ليطلب على مقله فوجده نائماً على حجر أمه نوماً هادئاً ، فاتحى ركناً من أركان الدار وجلس يستعرض في ذهنه ما وقع له ؛ وكان يسمع بين فترة وأخرى خوار الجاموسة وهي في ذريبتها تطلب العلف ، واعتراه وجوم غريب ودب في قلبه الخوف ، وخشى أن يكون مصيره كصغير ناظر الزراعة ، وبدأ يلوم نفسه على تسرعه في معاقبة خصمه ، وكان الأجدر به أن يتركه وشأنه بعد خلاص ابنه منه ، وازدادت مخاوفه وكثرت هواجسه واعتقد أنه لن تمر الليلة دون أن يقع له مكروه ، وشعر باضطراب نفسه ، واختلطت في ذهنه المشاهد المزعجة ، فرأى الشيخ سيد يعزم تعازيمه السحرية ، وشاهد أشباح المردة من الشياطين ترقص أمام عينيه وتندلع من فمها أسنة النار ، ويدها المراوات الثقيلة تلوح بها في وجهه ، وأحس بأفاس حارة تهب عليه ، وشعر باختناق شديد ، فصرخ مستنجداً وهو يمزق ملابسه :

— خلصوني منه . . . نجوني من الشياطين . . . يريدون قتلى . . . إنهم يهجمون على . . .  
فقامت إليه زوجته مضطربة، وسألته ما به ؟ فأمسكها وهو يشير لها إلى شياطينه ويكرر لها ما قاله قبلاً ، عرجت المرأة من الدار تولول وتقرع بيدها على صدرها ، فهرع إليها جماعة من الجيران ، يتقدمهم عم مبارك أكبر عجايز الحى سنأ ، وسأل عما حدث فأخبرته الزوجة بالأسر ، فتنهد الرجل وقال بصوت حزين « إنا لله وإنا إليه راجعون » ودخل الدار بمكازته الطويلة يسير مطأطئاً ، الرأس ، يتمم بالفاتحة على روح حسن سلام ، فلما رآه الأخير زحف إليه وأمسك يده بشدة وهو يقول له :

— ساموت يا عم مبارك ، ساموت . فأجابه عم مبارك وهو يربت على رأسه :

— لا يستطيع أحد أن يرد قضاء الله يا ولدى !

فأخذ حسن سلام يبكي بحرارة وهو يلتصق بعم مبارك كأنه يريد أن يرد عنه فائقة الموت . وبدأ عم مبارك يقرأ على رأس الرجل الآيات القرآنية التي يتلوها عادة على رأس الأموات ، فتخالفت قوى حسن سلام ، وارتجى على صدر الشيخ فاقد الوعي .

ودخل الدار في تلك اللحظة « أبو حجازى » فسأل من حوله قائلاً :

— ماذا جرى يا جماعة ؟ فأجابه عم مبارك على الفور :

— حسن سلام تعيش إنت يا أبو حجازى .

فقدم أبو حجازي من حسن سلام وخصه ملياً ثم قال وكله ثقة بنفسه :

- كلام فارغ ، الراجل فيه الروح مثلنا ، هاتوا يا جماعة قلة الماء.

فأسرعت الزوجة « بالثقة » وتناولها أبو حجازي وأخذ يرش الماء على وجهه بحسن سلام ،

ثم جعل يدعك يديه ورجليه بشدة حتى استفاق الرجل وفتح عينيه وهو يقول :

- أنا فين يا جماعة ؟ فأجابه أبو حجازي ضاحكاً :

- إنت في دارك يا حسن - شد حيلك يا أخي !

ورنت في أرجاء الدار « زغاريد » الزوجة ، واستبشر الناس فرحين بنجاة حسن سلام ،

وسرعان ما انقلب الماتم إلى عرس ، وصرخ أبو حجازي على الزوجة قائلاً :

- عاوزين نشرب الثربات « يابت » حلاوة قيام حسن سلام بالسلامة . يله بلى السكر

واعصرى القمون .

وخرج عم مبارك مستاءً وهو يتمم بكلام غير مفهوم . وتنفس الناس الصعداء بعد هذا

الاتصار الحاسم الذي ناله حسن سلام على الشيخ سيد فلم يعودوا يخشون شره ، وكانوا

يمرون بداره يصيحون متوعدين شائمين ، فرأت الأم الضريرة أن تحجز ابنها خوفاً عليه من

غضب أناس ، وكانت تخرج خلسة وتقفل الباب خلفها لتأتي له بالطعام والشراب ، وهدأت

العاصفة نوعاً ، ولكن الشيخ سيد لم تكن ترق في عينيه حياة المسجونين ، فكان يحاول فتح

الباب ليخرج ، ثم يرتد خائباً وهو يصرخ ويبكي ، يضرب رأسه في الحائط حتى يدميه .

وحدث مرة أن استطاع الإفلات من سجنه ، فذهب توأ إلى سوق البلدة ، وبدأ ينهب

ويبعثر ما تصل إليه يده ، ولكن الناس تجمهرت عليه وأقصته عن السوق بعدضربه ، وخرج

الرجل من السوق فزعا كالفريسة الوحشية التي يطاردها الصيادون ، ورغب في العودة إلى

داره فاستقبله جمهور من فلاحى الضيعة وطاردهوه بالطوب حتى وصلوه إلى البيت .

ومنذ ذلك اليوم والشيخ سيد لا يكاد يفلت من داره حتى يعود إليه منخنا بالضرب ؛

وبالغت أمه في الاحتفاظ به فلم يستطع الهرب من سجنه ، واقتصر على الصراخ والعويل

يملاً بهما جو الغرفة ، وسدت أبواب الرزق في وجه « الأم » وتنكر لها جميع الناس حتى

خفيدها ، فكانت تجلس أمام باب بيتها تطلب الاحسان والناس يمرون بها ولا يقربونها وهم

يستعينون بالله من شر الساحرة الماكرة .

ولما يئست المرأة من معونة أحد اعتكفت في ركن من أركان الدار مع ابنها منتظرة بصبر

واستسلام قضاء الله ، واشتد بها الضعف فتعمدت على الأرض بهلاهيلها تردد أنفاسها في غير انتظام

ولا استقرار ، وقد تضائل جسمها وجف ، وجحظت عينها غير المبصرة كإنهما تبحنان في الظلام

عن شيء يؤكل ؛ أما الشيخ سيد فكان يدور في الحجره نائراً وهو يقضم الطوب ، فإذا ماناله التعب

جلس بجوار أمه يبكي فتقبله وتلاطفه ، بمحاولة جهد استطاعتها أن توهمه بأن الطعام لم ينضج بعد .

وحدث أن استطلاع الشيخ سيد أن يفلت من سجنه ، وكان الوقت ظهراً ، والشمس على أشدها ، والسكون يسود العزبة ، والمكان قفر ، والهواء خمل ، وكانت جميع الدور مغلقة ، خرج الرجل هائجاً كالحيوان الجائع يجرى هنا وهناك في حيرة وارتياب ؛ وفتح باب أحد الدور وخرجت منه امرأة تحمل على رأسها قطعة من الطعام ، ذاهبة بها إلى زوجها في الغيط ، وكان يسير بجوارها طفلاً صغيراً ، وشم الشيخ سيد رائحة الأكل فاستجمع قوته وانطلق يمدو نحو المرأة ، وكان يتمتر فيقع على الأرض ثم يقوم يمدو وراءها ليلحقها ، ورأته المرأة ففزعت فزعا كبيرا ، واختطفت طفلها وحملته بين يديها وأرادت أن تمدو غنائها فواها ، ولحقها الشيخ سيد وأمسك بها فتعثرت في أذيالها على الأرض ووقعت القصة واتثر الطعام على الأرض ، ثم جعلت نصيح مستنجدة ، أما الشيخ سيد فهجم على الطعام الملوث بالتراب وأخذ يحشو به فمه .

وهبت في جو العزبة عاصفة هوجاء من الصوات زادها تألب الكلاب على النباح ، وسرطان ما انتشر بين الجميع أن الشيخ سيد منقض على طفل يأكله ، فجن جنون الناس ، وجاء الرجال على عجل بنبايتهم إلى مكان الحادثة ، وطاحوا بالشيخ سيد يضر بونه بلا حساب .  
وأخيراً صاح فيهم صائح : كفى أيها الاخوان ارفعوا أيديكم .

فكفوا عن الضرب وجعلوا يحففون عرفهم بأكام جلابيبهم ، وتقدم أحدهم وقلب الرجل بين يديه ثم تحتم متمجبا ، والتفت إلى إخوانه فأقبلوا يقبلون الرجل معه ، وانتشرت هممة بين الجميع عقبها صمت ثقيل .

ونظر الشيخ حمزة وصاح في الجمع قائلاً : ما لكم واجين كالأصنام ، هيا للعمل .  
وتقدم أمامهم يوسع الطريق ، فشر الرجال عن سواعدهم الممتدلة وجرى الشيخ سيد كما يجرون ثوراً ميتاً ، والأطفال خلفهم يرقصون ويهللون ، وأخيراً وقف الشيخ حمزة وقال : هنا . . . وحفروا له حفرة متسعة عميقة ، ورموا بالجثة فيها ، فسمع لها دوى غليظ غثيف ، ثم هالوا التراب عليها ، وعاد كل إلى عمله كأنه لم يقع شيء .

وما كاد طريق العزبة يقفر من المارة حتى ظهر على عتبة الشيخ سيد - شبح بزحف ويجر نفسه في ضعف وهالك ، واتجه نحو مكان الجريمة وأخذ يتحسس التراب المزوج بالدم ، يشمه تارة ويفحصه بين أصابعه تارة أخرى ، وجسمه كله يهتر مرتجفا ؛ وبنته صاح باختناق وجمل يللم وجهه ، وهو يقول :

— آه يا ابني . . . فتلوك يا ابني . . . فتلوك يا حبيبي يا ابني . . . : وارتمى على وجهه ينهه